الطفل والعوسج

قصة بقلم فوزي فريد

كان كل شيء صامتا في الغرفة ما عدا ساعة الحائط الكبيرة ... كانت تدق بعنف ... تك تك ... تك تك .. فخالجه شعور بالثقة والارتياح ايقظه من وجومه الطويل فقام يعد لنفسه فنجانا من الشاي . وحانت منه التفاتة الى رف الكتب فألفى صورتها تتوسد الرف وهي تبتسم له باغراء . « القذرة » قالها بصوت متشنج مخنوق وهو يقذف بالصورة الى سلة المهملات . من تحسبني هذه المستهترة ؟ اتحسبني مغفلا كبيرا لا أفقه حقيقة الاشياء وبواعث الامور ؟ ام تحسبني مطية ذلولا لشهواتها وارادتها التي لا تقف عند منطق او ضمير ؟

وركلت رجله محفظة الكتب بنزق ... « كنت سأنهال عليها صفعا حتى اعميها ثم امسك بخناق رفيقها واطرحه ارضا ثم ادوس كرشه بقدمي . » وانزلقت نظارته البيضاء الى ارنبة انفه ... فأعادها الى قبالة عينيه بعصبية آلمت صدغه ... وهرش رأسه قليلا وهو يصب الشاي في الفنجان .. « هه .. ولكن من هي حتى آبه لها واورط نفسي في مآزق كهذه . كانت على كل حال تجربة ذات عبر لن انساها ... وانا في هذه البلاد اجري وراء التجارب والحقائق في كل بحوثي ودراساتي . انها صفحة سوداء وانقضت .. »

وعن له ان يطالع الصفحة السوداء من بدايتها ، ولكنه سرعان ما طرد هذه الفكرة ... « ان اهمالها سيكون اكبر اهانة لها ... وهذا ما سأفعله بالذات . » بيد ان الفكرة عاودته من جديد ! كان الوقت مساء ... وهو يتأبط المجلد التاسع من كتاب « الفصن الذهبي » ويقف منتظرا تسجيله في قسيمة استعارة الكتب في مكتبة الجامعة . وتناهى الى سمعه صوتها في بحة عندليبية ! هل تسمح يا سيدي ؟؟

ـ بكل طيبة خاطر ...

واخذت عيناه تتمليان شعرها الذهبي كحزمة سنابل من عطر وعينيها الفيروزيتين كبحرتين من سحر اخاذ ثم تنزلق الى انامله الرقيقة وهي تدون اسمه في قسيمة الاستعارة .

ـ الاسم عصام أليس كذلك ؟؟

ـ نعم يا آنستي !

ـ اذا صدق ظني فهو اسم فارسي ؟

ـ أخطأت اصابة الهدف قليلا !

ـ عربي ؟؟

ـ وهو كذلك !

ـ وهل هو اسم أمير يمتطي صهوة جواده العربي كل صباح ويغازل زوجاته الاربعين كل مساء ؟

وغرغرت بضحكة طفولية حلوة .

ـ بل هو يا آنستي طالب مسكين يخر صريع الجمال من اول نظرة.

وشحذ ذهنه مليا ليضيف عبارة مناسبة ولكنه ارتج عليه فتناول كتابه وافسح المجال لغيره من المستعيرين .

وتذكر تلك الليلة التي قبلت فيها دعوته لاول مرة ... كانت ليلة مجنونة كلها سحر وفتون ... ولقد عاشها بشرايين وجوده حتى مطلع الفجر . ذهبا اولا الى المسرح ثم الى مطعم في قلب المدينة وبعدها الى ملهى بوهيمي لم ينصرفا منه الا قبيل الثالثة صباحا . كانت ليزا ـ وهذا هو اسمها ـ في غيبوبة من النشوة والمرح فأمسكت بيمينه واخذت تطوف به الشوارع والساحات الخاوية . كان حرس الليل ينظرون اليهما بريبة وتجهم فيقابلان ذلك بالضحك والغناء ... وما اروع ساعة انبلاج الفجر واطلالة الصباح ... خيوط من النور الوضيء تبلسم حواشي الافق وتزحف صوب المدينة .... اسراب الطيور والحمام تنهض من اعشاشها في سمفونية راقصة ... وايديهما متشابكة ... وخصلات شعرها تلفح وجهه ... وزرافات العمال والعاملات يمرون بهم باسمين محيين .

واشاح برأسه يتصفح احد الكتب متسائلا : « الحياة سراب .. لم اكن اتصور انها ستقابل اخلاصي وتضحياتي بالفتور والخيانة . سأسلوها مهما يكن من امر ... وعلى اية حال ان لدي اعمالا اجدى من ذلك واجل نفعا . » واضطجع على الاريكة الوحيدة في الغرفة واخذ يحدق في نقطة معينة في السقف : « لقد عثرت الان على اخطر سلاح في العالم ... انه يحميني من الموت ويقضي على جميع الاسلحة النووية وغيرها في جميع البلدان ... لقد ارغمت امريكا وروسيا على التصالح والتفاهم ... لا دكتاتورية في العالم ولا رأسمالية بشعة ... آه ... الان اسرائيل .. ماذا سأفعل باليهود .. هل سأقذفهم في البحر ... كلا .. لا لزوم لذلك .. سأصدر أوامري الى الامم المتحدة بأن تعمل على ترحيلهم الى جزيرة ما قرب استراليا ... يكفي ذلك ... لن اكون همجيا مثلهم ... آه ... الشعوب المستعمرة .. سأحررها جميعا ... وستصفق لي الشعوب من اعماقها ... وستدعوني قائد البشرية ... كلا ... بطل السلام .. لا ... الزعيم الانسان ... ليس ذلك مهما.. سأمر في هذا البلد يوما ما ... ستلتهب اكف المواطنين بالتصفيق .. سيهتفون لي طويلا وستفص ساحات المدينة بآلاف مؤلفة من الجماهير المحتشدة ... وستكون هي بينهم ... نعم ستقف بينهم ... حشرة صغيرة تدب بين حشد هائل من الناس ... وستنظر الى اعلى الى فوق ... الي ..... وفي عينيها دموع وفي قلبها ندم ... وسأصوب اليها نظرة شزراء ثم اتابع سيري لارد تحية الجماهير . »

وافاق من شروده على صوت احد السكارى في الطريق ، وهو يرفع عقيرته بالغناء حينا ويخطب مهددا متوعدا حينا اخر ، فوقف يطل عليه من النافذة وقد زحمت حلقه غصة ... « ان القوم ها هنا يحلمون مثلي ولكن بطريقة اخرى . » وعاد الى اريكته بعد ان ابتعد السكران منعطفا الى شارع اخر . وفجأة توقفت ساعة الحائط عن الدق ... فوجف قلبه ، وغمرت كيانه قشعريرة صقيعية رهيبة ... « كلا ... لن اتركها ، سأعتذر لها ... ستعود الي ... لا استطيع .. انا بحاجة لها ... بحاجة ماسة ... يا الهي ... لماذا اذكر الان تلك الليلة المشؤومة .. انني لا اريد .. لا اريد . »

كان في تلك الليلة طفلا لا يتجاوز الخامسة من عمره ... وكان يلعب مع جارته الصغيرة ليلى في بيتها الكبير في يافا عندما جاءت أمه

على عجل وحملته مهرولة به نحو بيتهما القريب . وقد سمع من اللفظ المتزايد ومن الدوي الرهيب ان اليهود يقصفون يافا بالمدافع . وانزوى في فراشه الصغير متشبثا بالوسادة منصتا لكل شيء ... وتعالى الدوي المفزع حتى كاد يصم اذنيه ... وتعالت معه الصيحات والضجيج والاصوات ... فأحس الطفل بأنه والفراش قطعة واحدة ... وفجأة خفت الدوي وتوقف الضجيج وذهبت الاصوات ... وحملق الطفل في الظلام مرهفا سمعه وكل جوارحه فلم يبصر سوى بصيص من ضوء ينعكس على ساعة الحائط ولم يسمع الا دقاتها الالية ترن في اذنيه كأهزوجة حانية ... كانت الساعة آنذاك بمثابة أمه وابيه وجدته فسكن جأشه وراح يحلم بمجيء النهار ... ولكن تلك الدقات الدافئة ما لبثت ان توقفت مرة واحدة وخيم بعدها صمت اخرس رهيب . حاول الطفل ان يصيح ... أن ينادي أمه ولكنه لم يستطع ... لم تواته الجرأة ... فأخذ ينشج بصمت مذعور محتميا بدف دموعه ...

لم يطق البقاء في الغرفة فأوصد بابها على عجل ، وهرع الى غرفة صديقه الجزائري سعدون ينشد عنده السلوان .

ـ أين وصلت في اطروحتك يا دكتورنا الهمام ؟

قالها سعدون واردف ذلك كعادته بضحكة مجلجلة .

ـ الى المرحلة الخطيرة التي تستوجب وقفات طويلة وشروحا عديدة. انت تعرف ان مضمون اطروحتي يعنى بالاثر الذي خلفته حضارة السومريين في العراق على حضارة الاغريق في اوروبا .

ـ وماذا كانت النتيجة ؟؟

ـ النتيجة هي تبيان ذلك الاثر !

ـ فقط ! وهل هذا هو الهدف الوحيد من وراء دراستك ؟؟

ـ الهدف هو الكشف عن الحقيقة !

ـ الحقيقة وحدها لا تجدي يا صاحبي ! هل تشفي غليلك حقيقة كون العرب هم اصحاب فلسطين الشرعيين وان الصهاينة هم المغتصبون؟ قم بنا الان نبحث عما وراء الحقيقة في احدى صالات الرقص العامرة . لا تتردد ... هيا بنا !

الصالة تستحم بدفق من الانغام الراقصة وتتعرى في الق خضيب من انوار المصابيح المتدلية كعناقيد شقر الخدود ... وافواج الراقصين تتساق مع النغم فتارة تتهادى وتترنح في جذل وعناق وطورا تشب وتلف كأن بهم مسا من الجنون . ولكز سعدون صديقه مشجعا : « لا تقف هكذا كتمثال من الشمع ! تقدم وحاول ! »

ـ ليس الان ... بعد قليل سأجرب حظي !

ـ كما تشاء !.

واندفع سعدون الى الحلبة لينحني امام احدى الشقراوات الحسان بين زحمة الوجوه . وبدا له الجو خانقا يضغط على اعصابه فتسلل طالبا منها مشاركته رقصة التشاتشا .

وقف طويلا يحملق في الوجوه والاقدام ... وغاب عنه وجه صاحبه بهدوء الى الخارج ... ويمم وجهه شطر ضفة النهر ... كان النسيم عليلا والسماء صافية فراح يمشي دونما اعياء ... ووقف اخيرا امام برج ساعة الجامعة ليلتقط انفاسه . كانت آنذاك تدق منتصف الليل ... اثنتي عشرة دقة ... لتعلن ميلاد فجر جديد .

انكلترا — **فوزي فريخ**

ذاك المساء

بارد ذاك المساء
وجيوش الريح تحتل المدينه
وفراغ موحش تفرزه الاسوار ، والشارع مجروح الجبين
وأنا أمضي مع الدور الحزينه
ليس في صمتي سوى خفقة نعلي الواهنه
وصدى أغنية تطرحها نافذة عند السماء

* * *

بارد ذاك المساء
لم يعد في أضلعي شيء سوى نبض الى شيء دفين
لم يعد في ظلمة الافق شعاع من حنين
وأتى الليل الى الغرفة في جفنيه ارهاص بشيء لا يبين

أيها الليل الحزين
ليس في بيتي أستار لاخفي مقلتيك
لست أعمى لا أرى ظل يديك
شبح يثقب احساسي وصمتي
يسكب الوحشة والحزن على رأسي وتختي
أين أروي رعشة المجهول في أضلاع بيتي

* * *

بارد ذاك المساء
وخطى ظلي مع الشارع تقتات الفراغ
أين أمضي
سأم يحتل وجداني ونعلاي تلوكان الطريق
والفراغ اللزج ينهار على ظلي الغريق

* * *

بارد ذاك المساء
الخطى تولد في صمت حزين
الخطى نقش على صفحة ماء
الخطى أعمى وقد أجهده حب الضياء

* * *

حماه — **ماجد حكواتي**